مقالات تربوية

الهوية الأكاديمية في مصر بين تسوير الفكر وتثويره

The Academic Identity in Egypt in-between Thought Fencing and Revolutionizing

◙ إعداد: أ.د/ طاهر محمد الهادي
أستاذ المناهج وطرق تدريس اللغة الإنجليزية .. كلية التربية.. جامعة قناة السويس..

لقد ترددنا غير مرة أن نطرق هذا الموضوع، إما لعدم تخصصنا في مجاله أو حرصا على شعور البعض لئلا تصيبهم صاعقة الموت من المكاشفة والمصارحة التي ضيعت – وما زالت تضيع - مستقبل التعليم الجامعي في مصر ، وبالتالي ضياع ما تحته. ولكن رغبة منا في إبداء رأي موضوعي في مجلتنا الغراء "إبداعات تربوية" – قابل للنقاش – إما على صفحات المجلة أو في أي منتدى أكاديمي، قررنا أن نبوح بشيء من جوانحنا.

◙ الهوية الأكاديمية:

من الصعب حقا تعريف الهوية الأكاديمية بدقة في ظل الأفهام understandings المختلفة بشأن دور الجامعات في المجتمع المحلي والدور المتوقع لها في المجتمع الدولي. فهل الولوج إلى ما يسمي بجمهورية العلم Republic of Science والتخلق بأخلاقها والسير على هداها من مكونات الهوية الأكاديمية؟ ربما ! وهل الأستاذيات professoriates الجديدة – أساتذة الجودة professors of quality وأساتذة التعلم مدى الحياة professors of life-long learning – التي تدين بأصولها للسياسات فضلا عن تطوير المعرفة، تدخل في تكوين الهوية الأكاديمية؟ نعم ولكن بشكل آخر متباين. وهل الأداء المتميز والمتمايز للمهام الأكاديمية للتدريس وتعزيز التعلم وإبداع معرفة جديدة واختبارها – والتي بدونها يصبح التعليم الجامعي كالصحافة والوعظ وتقديم الاستشارات خالية من القيم الحقيقية، يعد شكلا آخر للهوية الأكاديمية؟ نعم لحد كبير.

وقد لا ينكر أحد أن الهوية الأكاديمية في مجتمع جامعي ما لها هويات فكرية فردية قد تتسم – عندما تكون إيجابية بناءة – بأن لديها ثقة فكرية ذاتية بالنظم التي تدور في فلكها و بمجال الموضوعات التي تختص بها، وتكونها أطر مفاهيمية وأخلاقية متميزة وبأوجه الخير والنفع التي تسعى إليها والاعتراف بها ، مع الاعتزاز من جانب المؤسسة العلمية بها، بل تنمو و يشتد عودها من التربية المهنية والخبرة والممارسة. وأما إذا كانت سلبية تلك الهوية الأكاديمية، فلا تعتمد إلا على سمعة زائفة للأفراد وشهرة مصطنعة للمؤسسة التعليمية، ولا تأثير منها على المجتمع تأثيرا يقود إلى الأمام بل يجر إلى الوراء خيبة وضياعا. ولكن من يعترف بالهوية الأكاديمية - إيجابية التوجه، رصينة العلم، عالمية المعرفة، فسيفسائية الشكل، عميقة الجذور – قد يكون من مصادر القوة والشرف الأكاديمي . ولكن منح لقب مهني لأستاذ بعينه من جانب جامعته إشارة إلى هوية أكاديمية متميزة قد لا يكفي. ولكن يعضده ويسانده في ذلك الاعتراف من المرجعيات العلمية خارج جامعته أو مؤسسته، أو

نزولا على أحكام المجتمع الأكاديمي the academic community المتخصص بشأنه ، أو من الصفوة الأكاديمية the academic elite التي لها سبق الاسهام في تطور العلم وبناء المعرفة، والتي تعظم دور القيم الأكاديمية والخبرة العلمية العملية والمعايير الموضوعية وسط خضم المنافسات الشريفة التي تغذي شبق الرغبة في الوصول إلى الأفضل والأحسن و الأنسب والأرقى والأنقى والأبقى والأنجع والأنفع والأبقى أثرا للجميع.

وكل الأكاديميين من أساتذة الجامعات وغيرهم لهم هويات أكاديمية فردية، ومعظمها مرتبط بسمات مهنية professional traits كالخبرة القائمة على المعرفة النظرية وتقديم التدريب والتعليم للآخرين واختبار كفاءة الأفراد المنتسبين للجامعة كمؤسسة علمية بحثية وصرح أكاديمي، جنبا إلى جنب مع الالتزام بالميثاق الأخلاقي والسلوكي للمهنة مع تقديم الخدمات الأكاديمية المطلوبة. أما السمات التوظيفية functional traits فتركز على بل تعزز العلاقة المشتركة بين ما يعزى إلى الأكاديميين وتدخلهم لحل مشكلات المجتمع وحمايته وتعزيز الشراكة بينهم وبين المجتمع، خاصة وأن الهوية الأكاديمية الإيجابية لا ترتبط بدين أو سن أو جنس أو عرق أو طبقة اجتماعية معينة، ولكن يشكلها الشرف والاحترام و تقدير الذات والهياكل التنظيمية والأعمال المكلف بها الأكاديميون فيها، أو التي ألزموا أنفسهم بها مع حالة التوازن بين العمل الأكاديمي والأداء التدريسي، ولا ينفك عن ذلك الحيز الأخلاقي moral space المحدد للصواب والخطأ والمعنى والقيمة والأهمية لموضوع ما من عدمه – بعيدا عن الآراء الشخصية التي تحمل خلفية أيدولوجية بعينها.

إن الهوية الأكاديمية الإيجابية – في نظرنا – تدور حول كيفية إيجاد حالة من التناغم بين عوالم مختلفة للممارسات وتكامل الأدوار المتعددة للأكاديميين والإبحار في المسارات الوظيفية والمهنية المتعلقة بالعمل البحثي الجامعي أو المؤسسي ، و قد يكون لها ثلاثة جوانب رئيسية تتمثل في إيجاد حلول لمشكلات المجتمع ترتكز على أدلة وبراهين للتحديات الفعلية داخل المؤسسة الجامعية، وتقديم أو إمداد النظم الجامعية برؤى وأفهام جديدة لها من الموضوعية والموثوقية مكان واعتبار، مع توضيح وبيان وجهان النظر في الاجراءات الفعلية لمعالجة التحديات الوظيفية، ومن ثم الحفاظ على الجودة الحقيقية المحورية core quality للمعارف والمهارات المستهدفة في كل دور من أدوار الأستاذ الجامعي كأحد ممثلي الهوية الأكاديمية، وكل عالم يتواجد فيه تدريسا وبحثا وممارسة مهنية. وأما من ناحية التدريس – الذي هو ركن ركين من المهام المكونة للهوية الأكاديمية يعنى بتدريس نتائج البحوث، و ينشر نتائج البحوث القادرة على خلق حالة من التأمل الفكري أو علاج خلل فكري في أذهان البعض، بل ويؤكد في تدريسه على سمات الباحث الموضوعي، ويساعد في إجراء البحوث بل ويقدم خبرة بحثية قادرة على تغيير الأطر المرجعية الخاطئة وعادات العقل غير السوية علميا وثقافيا واجتماعيا. وبذلك تنشأ ما يسمى بالهويات المهنية – منها أن الأستاذ الجامعي كممثل للهوية الأكاديمية يكون متعلما مستديما continuous learner من خلال وظيفته ومهنته في ضوء تنمية أكاديمية مستقبلية، وأن يكون خبيرا نظاميا disciplinary expert يغذيه العالم الأكاديمي وترعاه النظم المختلفة، وأن يكون باحثا ماهرا skilled researcher له ريادة في الممارسات التدريسية الجديدة في جامعته، بل و أن يكون معلما يقوده الدليل evidence-based

teacher ولا يتحدث إلا به – يربط بين البحث والمعرفة وبين النظريات والممارسات التدريسية.

◙ الهوية الأكاديمية في مصر:

ما من أستاذ جامعي في مصر – كما في العالم بأسره – إلا وله هوية أكاديمية ما : منها ما يستصغر الذات أو يستصغر الآخر ، أو ما يهيمن على الآخر أو ما يقبل هيمنة الآخر عليه، ومنها ما تفتقر إلى كونها نموذجا وقدوة، ومنها ما يمكن رؤيته على أنه الأستاذ الأوحد والنموذج النادر، ومنها ما يحاول إيجاد مكا بين كل هذه المتلاطمات النفسية أو الصراعات الأكاديمية السلبية. وعلى كل، فإن الحكم هو القانون والعرف الأكاديمي المنضبط قبل الأخلاق الفردية. فإن ذلك القانون يجعل الواجبات مولدة للحقوق ومحافظة عليها، وغيابه يولد عشوائيات أكاديمية وإدارية لا يقدر على إصلاحها الفلاسفة والمناطقة وأهل التبشير، حتى وإن كان القانون هناك ولكن يطبق انتقائيا، فإنه يولد انتقائية المشاعر والتوجهات وتضعف أدوات الضبط الداخلي بما فيها الأداة الكبرى وهي الضمير.

ومن المعلوم أيضا أن الانسان لا يحب مكانا إلا إذا أحس أنه يقدم له شيئا ذا قيمة – حتى لو كانت سلبية. ولكن القيام بالصحيح والسليم من الأقوال والأفعال مرهون بثبات الضمير في نفس صاحبه. فمثلا بعض الأكاديميين في الجامعات المصرية وخاصة بكليات التربية – على ما أعتقد – يمثلون كسادا ذهنيا أو استعلاء فكريا مزيفا من شأنه أن يمثل خطرا على حياة الأمة، و لا يمكن – مع وجودهم وتوجهاتهم – ترميم المشهد التربوي الحالي. فهم كالمتاريس أمام إعمال العقل والتوالد الفكري في العصر المعلوماتي الرقمي، ب ويسعون وبكل قوة إلى أقلمة الفكر وتنميط السلوك وتوحيد التوجه المصمت، بل ويعيشون وهما يدعونه التميز المطلق. وهذا في حد ذاته جعل بعض أعضاء هيئة التدريس – ضعاف العقول والنفوس المتقوتين على المخلفات الأكاديمية والبقايا البحثية – يفهمون أو يتخذون المتميزين المزيفين من الاستثناءات الفكرية التي يجود بها الزمان بين الحين والآخر. ومن عجيب الأمر أن المتميزين المزيفين يستعلون ولا يتواضعون، يستهلكون نتاج غيرهم بترجمة أو تلخيص أو تلاص أو تشويه، حتى إذا كان هناك محفل علمي وجدت في حديثهم بلاهة فكرية وجمودا بحثيا وكسادا أكاديميا، بل ويختزلون الفكر في عبارات منمطة وألفاظ أجنبية يرطنون بها (و غالبا لا يحسنون نطقها بلغتها الأصلية) وكأن ذلك هو الدليل الأوحد للمعرفة والسبيل اليتيم للعلم. وإذا صمتوا، فمن قبيل التعمية ولبس قناع التواضع والرزانة . وإذا بحثت عنهم أو نبشت في تاريخهم لوجدت إعجاب أصحاب الجهالة بهم، وما دروا أنه لا يعجب بجاهل إلا مثله، و لا يسبح بحمد سيده إلا عبده، ولا ينثر بخورا على شيخ إلا مريدوه. إذا فما الحل؟!!!

نرى أنه محتم على الأستاذ الجامعي في مصر – الآن - أن يكون قدوة أخلاقية ومنبرا علميا رصينا وبحرا أكاديميا سيالا- ولا نقول مستودعا فكريا حاو لجاهز الأفكار سابقة التفصيل والتصميم، وأن يكون لدية استقامة إدارية وفهم قانوني سليم يجعل من ثقافته مشاعا لطلابه، ولا يكون القهر سبيله للتغيير إلى الأفضل أو الأحسن، وما هو ببالغه إن جعل علمه سلعة وفكره مزادا. فإن فعل، فلقد تيتم طلابه من بعده. وإن جعل الظلم والإجحاف سبيلا لبلوغ غايته الإدارية، لانخسف نجمه قبل أن يبرح مكانه إلى مزبلة التاريخ. نعم هناك توازنات و متوازيات، وهناك تبادل مصالح وتدابير إدارية، وهناك ما يمكن إصلاحه وما يجب

تغييره، ولكن القبول بطلب الحقوق الأكاديمية والإدارية واجب، والاعتراف بالحق في الاعتراض الأكاديمي والاداري واجب ، والعمل على حل الصراع الأكاديمي والاداري واجب. وإن كان هناك عقبة إدارية تعيق العمل الأكاديمي، وجب التسييخ الاداري أو عفوا التشحيم الاداري من قبيل "يسروا ولا تخالفوا". وإذا كان هناك صراع أكاديمي يتسم بالتثوير الفكري فلا عجب في أن يعزز الهوية الأكاديمية للأستاذ الجامعي ، فيكون بعلم وفهم وحسن تقدير وجميل خطاب مع الاعتراف بأن السمع والطاعة المستنيرة من الآخرين لا تكون إلا بالمحبة والمودة – لا فاشية الكراسي أو هتلرية القرارات أو صدامية الخطاب. ومن اليقيني أن الاستثناءات الأكاديمية موجودة في كل تخصص – لا تجد فيها اتكالا وتراخيا أو التطفل على أفكار الآخرين، وإنما تدفق فكري وفهم توسعي وتوطين للعلم وتهجين و تطبيق عملي للمعرفة. تلك الاستثناءات الفكرية قد تنسحب من الساحة الإعلامية والترويجية والدعائية بسبب علو الجيف البحثية وأشباه الأكاديميين وتزاحمهم على الصدارة في بؤرة اهتمام ليسوا أهلا لها. وقد يقبع أستاذ جامعي ما - وهو بالفعل استثناء أكاديمي في تخصصه – خلف المقاعد أو داخل ذاته أو على محطة الحياة ينتظر الوداع الأخير، لاقتناعه بأن المجد غالبا مسروق منه في هذه الأيام، وليس له أو لأمثاله وإنما لمن يطحنون الكلام ويلعقون الكراسي ، فهم أصحاب الفرح والمدعوون في كل زفة !!!!!

◙ بين تسوير الفكر وتثويره:

عادة ما نقول أن العلم المستقر هو الجهل المستقر، وهذا صحيح. فلو ثبت كل عند ما يملكه من علم وما يتميز به من معرفة لانطفأ للدنيا كل مصباح، ولأظلم كل مستقبل. بالفعل هناك من الأكاديميين – وخصوصا بعض أساتذة الجامعات – ممثلين للهويات الأكاديمية السلبية، يدورون في نفس الفلك خشية الوقوع في الزلل، ويحسبون أنهم بذلك آمنون. ويكررون نفس الأفكار بنفس منطقهم القديم السقيم، أو بمنطقها البالي، وكأنهم يقولون " إنا وجدنا آباءنا على أمة" أو "ممنوع الاقتراب" ، بل ويحيطون أنفسهم وعقولهم بأسوار غاية في الغرابة والطرافة، ويريدون لمن حولهم أو من يعرفون من صغار الباحثين سنا ألا يقتربوا من هذه الأسوار، بل عليهم بناء أسوار لهم شبيهة بأسوار أساتذتهم!!! ومن المعلوم يقينا أن الفكر لا يولد إلا فكرا، والعلم لا يوجد إلا علما ومعرفة، وكل جار سار ، وكل كاف شاف .. فلماذا تسوير الفكر بدلا من تثويره؟! لماذا لا يتصف الأكاديميون الإيجابيون بتكسير النماذج المنمطة وتغيير السلوكيات غير المتوائمة والمتلائمة مع معطيات العصر (ولا نقصد الثوابت الدينية أو المعايير الثقافية والاجتماعية)، ولماذا لا يكون الفكر ثوريا في مجال حل المشكلات ومواجهة التحديات والعقبات وتخطي الحواجز بشكل مختلف؟! ولماذا لا يكون الولوج إلى الأنماط المحددة للذات الأكاديمية وفحصها وتمحيصها من وقت لآخر، ومن موقف لغيره، والتفكير خارج مألوف التفكير think the unthinkable لإيجاد حياة أكاديمية فكرية أكثر إبداعا و أفضل إنتاجا و وأدوم سعادة بشحذ الإلهام وكشف الإبهام وتعرية الإيهام وتغيير الرؤى الجامدة الدفينة، وفتح الباب على مصراعيه لظهور العبقرية المختبئة في جوانية كل منا؟! تثوير فكري نرجوه ونعمل به وله بدلا من تسوير للفكر يريده الآخرون منا ولنا، ولسنا بفاعلين .

دملو - بنها في الخامس من فبراير ٢٠١٨